المستر بكوك ورفاقه

للقصصى الانجليزى شارلز ديكنز

(تابع ما نشر فى العدد الماضى)

واتجه الرجل على حين غفلة إلى مستر توبمان قائلا : « فتاة جميلة أيها السيد » ، وكان مستر توبمان يصوب نظراته فى مظهر لا يتفق ومبادئ تلك الجماعة ، جماعة بكوك ، إلى غادة فى الطريق . وأجاب توبمان بقوله : « جداً »

— ليست فتياتنا من الجمال كفتيات أسبانيا مخلوقات نبيلة .. شعر أشقر ... عيون دعج ... قدود رشيقة ... مخلوقات حلوة ... جميلة

وتساءل مستر توبمان : « هل زرت أسبانيا أيها السيد ؟ »

وأجابه ذلك الشخص قائلا : « قضيت هنالك عصوراً »

فسأله مستر توبمان : « هل ثمة من انتصارات أيها السيد » ؟

— انتصارات : آلاف ... دون بولارد فزجيبج .... جراندى .... بنته الوحيدة ... دونا كرستينا ... مخلوقة جميلة ... تحيني حب الجنون ... أب حقود . ابنة عزيزة النفس ورجل انجليزى وجيه ... دونا كرستينا فى يأس ... مم . مضخة صغيرة للمعدة فى حقيبتى ... عملية ناجحة ... بولارو المجوز فى مرور غالب ... يوافق على زواجنا ... أيد مشتبكة وفيض من الدمع ... قصة مؤثرة ... جداً »

شارلز دكنز

وكانت صفات تلك الفتاة ومفاتنها قد تركت أثراً عميقاً فى نفس مستر توبمان فسأل الرجل : « هل السيدة فى انجلترا الآن أيها السيد » ؟

— « لقد ماتت أيها السيد ... ماتت »

وعندئذ وضع الرجل على عينه خرقة صغيرة قذرة كانت بقايا منديل قديم وأتم كلامه قائلا : « لم تشعر بتهدم هيكلها ... وذهبت فريسة »

وسأل سندجراس ذو النفس الشاعرة : « وماذا كان من أمر والدها ؟ »

— « حزن وشقاء ... اختفى فجأة ... حديث

المدينة كلها ... بحث فى كل جهة ... لا طائل ... يقف انفجار الماء بغتة من النافورة فى الساحة الكبرى ... أسابيع تنصرم .... الماء لا ينبعث عمال لتطهيرها ... نزح الماء الراكد ... وجه حمارى رأسه إلى أسفل فى فوهة النافورة ... أخرجوه ... تلعب المياه متدفقة من النافورة كما لم يكن هناك شىء »

ولقد بلغ التأثر بمستر سند جراس مبلغاً عظيما فقال : « هل تسمح لى أيها السيد أن أثبت فى دفترى تلك المأساة الصغيرة ؟ »

— « اسمح لك لا ريب أيها السيد ... خمسون غيرها إن شئت أن تسمع ... حياة غريبة . تاريخ عجيب ليس تاريخاً فذاً ... ولكنه وحيد فى بابه »

وظل الرجل يقص من تاريخه عليهم وهو يتناول بين الفينة والفينة كأساً من الخمر ، حتى بلغت العربة قنطرة روشستر ، عندئذ كانت صفحات كل من مستر بكوك ومستر سند جراس قد امتلأت بما اختاره من مخاطراته

ولاحت لأعين السفر قلعة قديمة ، فصاح مستر سند جراس بكل ما وسعه من حماسة شعرية اتصف بها « يالها من أطلال فاخرة ! »

ورفع مستر بكوك منظاره المقرب إلى عينيه فانطلق لسانه قائلا : « ما أعظمها موضع دراسة لمن يعنى بالآثار ! »

وقال الرجل : « آه ... مكان جميل ... قلعة فاخرة ... حوائط عابسة ... أقواس متداعية ... برج ... متهدم وهناك كنيسة قديمة أيضاً ... برت سلمها أقدام الحجيج ... » وهكذا ظل الرجل يهذى بمثل تلك العبارات حتى بلغت العربة فندق « بول » فنزلوا ؛ وهناك سأل مستر ونكل ذلك الرجل هل يبقى فى الفندق ؟ وأجاب الرجل بأنه لا يعتزم البقاء . ثم اتجه مستر ونكل إلى مستر بكوك وتمتم ببعض كلمات ، ثم سرت همسة من فم مستر بكوك إلى أذن مستر سندجراس ، ثم من مستر سندجراس إلى مستر توعان ، وأخيراً اهتزت الرؤوس كلها بإيماءة موافقة ، فخاطب مستر بكوك ذلك الغريب بقوله :

« لقد أوليتنا اليوم صنيعاً جميلا أيها السيد ، فهل تسمح لنا أن نتقدم بدليل بسيط على ما نكنه لك من شكران ؟ إنا نرجو منك أن تشرف مائدتنا اليوم »

« مع فائق السرور ... ولتكن دجاجة ومرق ومايقدم معها ... على أنى لا أقترح ... ومتى يكون ذلك ... ؟

وأجاب مستر بكوك : نحن الآن قبيل الساعة الثالثة ، فهل يلائمك أن يكون الأكل عند الخامسة ؟ .

... يلائمنى ذلك تماماً ... عند تمام الخامسة ... وإذن فلتمنوا بأنفسكم حتى ذلك الوقت ... وانطلق الرجل بعد أن رفع قبعته قليلاً عن رأسه وأعادها فى فتور ؛ وكانت تبرز إلى النصف من جيب سراويله تلك الحزمة الملفوفة بالورق البنى اللون ، وكان سريع الخطو خفيف المشية ، ورأوه ينعطف فى الشارع المجاور

واتجه مستر بكوك الى رفاقه قائلا : « يظهر فى جلاء أنه رجل كثير الأسفار والتجوال فى الممالك ، وأنه دقيق للملاحظة وثيق الخبرة بطبائع الناس والأشياء

وأجاب مستر سندجراس : « كم يشوقنى أن أرى ملحمته ! »

وقال مستر ونكل : « وأنا كم أود لو أنى رأيت ذلك الكتاب »

ولم يقل مستر توبمان شيئاً ، ولكنه كان يفكر فى دونا كرستينا وفى الفاغورة ، ومن ثم فقد امتلأت عيناه بالدموع

وبعد أن احتجز هؤلاء غرفة جلوس لهم ، وخبروا غرف نومهم ، وأمروا باعداد ما رغبوا من طعام ، خرجوا من الفندق يلقون نظرة على المدينة وما يجاورها

وإنا لا نجد فيما أثبت مستر بكوك فى دفتره عن المدينة وما حولها ، ما يشعر بأن ما تركه مفظرها من أثر فى نفسه يختلف فى شىء عما كتبه غيره ممن زاروا تلك الجهة ، ومن السهل أن نوجز وصفه فيما يلى :

« يتبين لى أن أهم ما تنتجه هذه المدينة وجاراتها ، هو الجند والبحارة واليهود والطباشير والجبرى والضباط وعمال الموانى ، وأن ما يعرض عادة للبيع فى شوارعها العامة لا يعدو الواردات البحرية والتفاح والسمك الطرى والجنـدلى . وتقع الأعين فى تلك الشوارع على مظاهر بهيج حى ، يكون مبعثه فى الغالب مرح الجنـد وزياطهم إذ يتجمعون . ولعمرى أن مما يبهج نفس كل امرىء سخى اليد يحب معاشرة الأصدقاء ، أن يرى هؤلاء الرجال الفطاريف يموج بعضهم فى بعض ، بفعل ذلك الفيض الحامى ، ترسله حمية الأجسام والأرواح ؛ ويتجلى ذلك على الأخص ، إذا ذكرنا ، أن السير فى إثر هؤلاء ومشاركتهم فى مزاحهم ، يهيىء متعة رخيصة بريئة للعامة ، فليس هناك من مظاهر الانبساط ما يفوق انبساط نفوسهم ورقتها . حدث قبل مجيئى بيوم أن أهين أحدهم إهانة بالغة فى حانة عامة ، فلقد أبت ساقية الخمر أن تعطيه من خمرها زيادة على ما أخذ ؛ فكان جوابه على ذلك أن استل خنجره ، وجرح الفتاة فى كفها ، وهو ما فعل ذلك إلا على سبيل الداعبة فحسب . ومع ذلك فقد كان هذا الفتى الظريف أول من حضر إلى الحانة فى الصباح التالى ، حيث أعرب عن استعداده لتناسى الحادث كأن لم يكن هناك شىء »

واستمر مستر بكوك يصف المدينة قائلاً : ويخيل إلى أن التبغ يستهلك فى هذه المدينة بكثرة هائلة ، وأن تلك الرائحة التى تملأ شوارعها ليستنشقها ويستمرئها أولئك الذين اشتد ولوعهم بالتدخين . ولقد يأخذ السائح الغرير على المدينة وضواحيها ما يراه من قذارتها ، تلك القذارة التى تعد أظهر صفاتها ؛ بيد أن هؤلاء الذين يرون فى تلك القـذارة علامة الحركة ودليل النجاح التجارى ، يرتاحون ، لا ريب ، إلى ذلك المظهر »

وحضر ذلك الغريب عند الساعة الخامسة وهو الموعد الذى حددوه . وما هى إلا برهة حتى أحضر الطعام . ولم تك مع الرجل تلك الحزمة الملفوفة فى الورق البنى ، ولكنه لم يغير شيئاً من هندامه ، بيد أنه عاد أكثر ثرثرة ، إن كان هذا ممكناً

فلما رفع الغلام غطاء أحد الأطباق تساءل الرجل : « ما هذا ؟ »

وأجابه الغلام : « هذا سمك طرى يا سيدى »

— « سمك طرى . آه ... سمك عظيم ... يرد كله من لندن ... أصحاب عربات الرحيل يأتون بولائم سياسية ... عربات نقل ملأى بالسمك الطرى ... عدد من السلات ... قوم ما كرون . كأس من الخمر يا سيدى »

وأجاب مستر بكوك قائلاً : « بكل سرور »

وشرب الرجل من تلك الخمر أولاً مع مستر بكوك ، ثم مع مستر سند جراس ، ثم مع مستر

توبمان ، ثم مع مستر ونكل ، وأخيراً مع الرفاق مجتمعين ، كل ذلك فى مثل ما يتكلم من سرعة : »

وراح يسأل خادم الفندق قائلا : « جلبة شديدة على السلم يا غلام ... مقاعد صاعدة الى أعلى ، تجارون يهبطون الى أسفل ... مصابيح ... كؤوس ... قيثارات ... فيم كل هذا ... ؟ »

— « للرقص يا سيدى »

— « اجتماع ؟ »

— « كلا يا سيدى ، ليس هو اجتماعا يا سيدى ، هو حفل من أجل عمل من أعمال البر يا سيدى »

وسأل مستر توبمان ذلك الغريب فى شوق : « أيوجد كثير من الغانيات فى هذه المدينة ؟ هل لك علم بذلك أيها السيد ؟ »

— شىء فاخر ... مركز رئيسى . كنت أيها السيد ... كل امرئ يعرف كنت .. تفاح .. برقوق ... خمر ... نساء ... كأس من الخمر يا سيدى . »

وأجابه مستر توبمان بقوله : « مع عظيم السرور يا سيدى » ثم ملأ الرجل كأسه وأفرغها

ثم استأنف مستر توبمان حديث الرقص قائلا : « كم أتمنى لو أتيح لى الذهاب الى ذلك المكان ! كم أتمنى ! »

وتدخل الغلام بقوله : « تباع التذاكر فى الحانة أيها السيد ، وثمن الواحدة نصف جنيه »

وأعرب مستر توبمان ثانية عن رغبته الشديدة فى مشاهدة ذلك الحفل ، ولكنه لما لم يجد أى رد فى عينى مستر سندجراس ، ولا فى حلقة مستر بكوك الفارغة ، أكب فى لذة عظيمة على الشراب والحلوى وقد وضعا إذ ذاك على المائدة . وانسحب الغلام تاركا الجماعة يستمتعون براحة تينك الساعتين اللتين تعقبان الغداء

وقال الرجل الغريب : « عفوا ومعذرة أيها السيد ... بقيت زجاجة ... أدرها ... وجهة الشمس ... أديروا الكؤوس واشربوها حتى الثمالة » ثم أفرغ كأسه وكان قد ملأها منذ دقيقتين ، وعاد فملأه فى هيئة من اعتاد ذلك الفعل

وأديرت كؤوس الراح وطابت مقادير جديدة ، وأخذ الغريب يتحدث وجماعة بكوك ينصتون . وكانت الرغبة فى رؤية الحفلة تلح على مستر توبمان بين لحظة وأخرى ؛ وأشرب وجه مستر بكوك بتلك الصبغة ، وشاعت فيه تلك الحرارة التى يبعثها الاحساس العميق بالأخاء ومحبة الرفاق ، وأخذ النعاس كلا من مستر دنكل ومستر سندجراس فناما ملء جفونهما

وقال الغريب : « بدأ الحفل فى الطابق العلوى . اسمع أصوات الجمع ... تختبر القيثارات ... ثم العود ... لقد بدأوا ... » ولقد دلت الأصوات المختلفة التى وصلت الى أسفل البناء أن هؤلاء الراقصين قد بدأوا الشوط الأول

وعاد مستر توبمان يقول : « كم أتمنى أن أشهد الحفل ! »

وعاد الغريب قائلا : « وأنا أيضا كم أتمنى ذلك . لعن الله ذلك المتاع الثقيل ... كتلة ضخمة ... ليس لدى من الملابس ما أرتديه لأذهب الى البهو .. موقف نكد ... أليس كذلك ؟ »

وكان الاحسان والخير العام فى مقدمة المظاهر الرئيسية فى مبدأ جماعة بكوك ؛ ولم يكن ثمة فيهم من هو أشد ظهورا فى إخلاصه لهذا المبدأ من مستر

ترامى توبمان . وإنك لتجد فيما أثبت فى سجل الجماعة من مواقف ذلك الرجل الفذ ما لا يسهل تصديقه ؛ وفى تلك المواقف ترى هذا الرجل يغدق ببرائه على بقية الأعضاء ويمد إليهم يد المساعدة

وقال مستر توبمان لذلك الغريب : « إنه لما يسعدنى أن أعطيك من ملابسى ما بقى بغرضك ، ولكنك تبدو نحيفاً على حين أنى ... »

— « إنك بدن ... باخوس إله الخمر الشاب ازداد بدانة ... قطع أردانه ... ترجل من فوق برميل ... يرتدى سترة ضيقة من الصوف تلتصق بجسمه ... ها ... ها ... أدر كؤوس الراح »

وليت شعرى هل امتعض مستر توبمان بعض الامتعاض لتلك اللهجة التى طاب بها إليه ذلك الرجل أن يدير الخمر التى ما لبث أن عبها ، أم أنه وقد رأى عضواً من أعضاء جماعة بكوك يُشبِّه بباخوس المترجل ، قد أحس فى ذلك تشهيراً به وتعريضاً شنيعاً ؟ ذلك أمر لم يتبين بعد . ناول الغريب الخمر وتكأكأ السعال مرتين ، ووجه إلى الرجل نظرات صارمة حادة استمرت عدة ثوان ، ولكنه لما رأى من ثبات ذلك الرجل وهدوئه ما رأى على الرغم من تلك النظرات لم يرد من أن يستردها شيئاً فشيئاً وأن يعود به إلى حديث الرقص فقال :

«أردت ياسيدى أن أقول إنه إذا كانت ملابسى لا تلائمك لشدة وسعها ، فان ملابس صديقى مستر ونكل ربما كانت مناسبة » .

وقاس الرجل بعينه ملابس مستر ونكل وانبسطت أسارير وجهه وهو يقول : « إنها عين ما أريد »

وتلفت مستر توبمان حوله ، فرأى أن الخمر التى ساقت صديقيه مستر سندجراس ومستر ونكل الى النعاس ، قد أخذت تدب الى حواس مستر بكوك . وكان هـــذا السيد ، قد تقلب فى تلك الدرجات التى تسبق عادة الخمود الذى يتلو الأكل وما يلحق به . أخذ يهبط من قمة الانتشاء الى أعماق البؤس ، ويصعد من أعماق البؤس الى قمة الانتشاء ، فكان بذلك كمصباح الغاز فى الشارع . لم تكد تهب الريح على فوهته حتى كان كالمصباح ، انبعث منه أول الأمر وهج شديد اللمعان ، ثم ما لبث أن خفت حتى انحسبه قد انطفأ ، وما هى إلا برهة حتى انبثق نوره ثانية ليلتمع لحظة ثم عاد فارتعش ذلك النور واضطرب حتى انطفأ فى النهاية . ومال رأسه فاستند الى صدره . ولم يك ثمة شىء مما تستدل به الآذان على وجود ذلك الرجل العظيم ، سوى ذلك الشخير المتتابع ، تقطعه بين آونة وأخرى حشرجة طفيفة .

وكانت قد اشتدت فى تلك الآونة رغبة مستر توبمان فى أن يشهد هو الرقص ويرى لأول مرة مقدار ما يتركه جمال غادات كِنْت من أثر فى نفسه . كذلك اشتدت رغبته فى أن يصطحب معه ذلك الغريب ، فهو لم يسبق له علم بتلك الجهات ولا بساكنيها . على حين يخيل إليه أن ذلك الغريب يعرفها كأنه عاش فيها منذ نعومة أظفاره .

وكان مستر ونكل يغط فى نومه ، وكان صديقه مستر توبمان يعرف معرفة خبرة ووثوق مما شاهده من أمر صاحبه فى مثل تلك الأحوال أنه إذا استيقظ من نوم كهذا ، فما يكون ذلك حتى فى الأحوال العادية إلا لكى يلقى بنفسه على سريره . وصاح ذلك الغريب الذى لم يعرف التعب برفيقه قائلا : « إملأ كأسك وأدر الخمر » .

وفعل مستر توبمان ما طلب إليه . وكانت تلك

الكأس الأخيرة كأنها حافز جعله يعقد النية على تنفيذ ما اعتزم . ثم اتجه الى صاحبه قائلا : —

« تقع الحجرة التى سينام فيها مستر ونكل داخل حجرتى ، وأنا لا أستطيع إذا أيقظته الآن أن أفهمه ماذا أريد منه ؛ ولكنى أعرف أن عنده حلة كاملة فى حقيبته ، فاذا فرضنا أنك ارتديتها وذهبت بها الى البهو ، ثم خلعتها بعد عودتنا ، فانى أستطيع أن أضعها فى مكانها دون أن أزعجه الآن أو أقلقه »

« فكرة صائبة ... حيلة فائقة ... موقف نكد لعين ... أربع عشرة حلة فى ذلك المتاع الثقيل وأرانى مضطراً أن ألبس ثياب رجل آخر ! .. فكرة حسنة جداً ، تلك الفكرة ... جداً »

وقال مستر توعمان : « يجب أن نشترى تذاكرنا »

— « أمر لا يحتاج أن نقسم الجنيه قسمين ... دعنا نقترع من يدفع للاثنين ... ألق الجنيه على المائدة ... لفه كما تلف المغزل بأصابعك ... أنا أقول إنك ستجد الوجه الذى رسمت عليه المرأة ... المرأة ... المرأة ... المرأة الساحرة »

وألقى الجنيه على المائدة وظهر منه الوجه الذى طبع عليه الفارس وقد سماه الرجل بالمرأة من باب التظارف

ودق مستر توعمان الجرس واشترى التذاكر وطلب إلى الغلام مصباحا أو شمعاً يذهب به إلى الحجرة ؛ وبعد ربع ساعة كان ذلك الغريب يخطر فى حلة مستر ونكل

وبينما كان الرجل ينظر إلى ثيابه فى المرآة قال مستر توعمان : « إنها حلة جديدة ، وهى أول حلة صنعت تحمل زرار ناديذا » . ثم وجه نظر الرجل إلى ذلك الزرار الكبير المذهب الذى طبعت فى وسطه صورة وجه مستر بكوك ثم كل من تينك الحرفين (P. C.) على الجانبين [1] . وتساءل ذلك الغريب « P. C. ؟ ماذا ... منظر غريب ... صورة ذلك الرئيس و P. C. ماذا تعنون بذينك الحرفين ؟ أتريدون بهما « Pebuliar Coat » [2] ؟ وراح مستر توعمان يشرح للرجل فى امتعاض شديد وفى زهو وترفع ذلك اللغز الخفى

وأخذ ذلك الغريب يقول وهو يدور على عقبيه ليرى نفسه فى المرآة : « تبدو قصيرة عند الوسط ... أشبه بسترة رجل البريد العام ... حلل غريبة تلك الحلل ... صنعت بلا قياس ... تجىء معكوسة ... وتلك من غفلات القدر التى لا تفهم ... كل من طالت جسومهم تكون حللهم قصيرة ، وكل من قصرت أجسامهم تكون حللهم طويلة »

وفى أثناء تلك الثرثرة ، أصلح الرجل وضع ملابسه ، أو على الأصح ملابس مستر ونكل ، وسار فى صحبته مستر توعمان ، فصعدا السلم إلى بهو الرقص

وسألها الرجل الواقف بالباب « ما اسماكما أيها السيدان ؟ » . وهم مستر توعمان أن يتقدم ليسمع الرجل القابه فحال صاحبه بينه وبين ما أراد

« لا تذكر أسماء قط ... » ثم همس فى أذن مستر توعمان بقوله : « لا قيمة للأسماء ... غير المعروفة ... أسماء حسنة جداً فى ذاتها ولكنها ليست عظيمة ... أسماء لها قيمتها فى جمع صغير ، ولكن لا يقام لها وزن فى حفل عام ... قل : رجلان من لندن ... غريبان من ذوى المكانة ... أى شىء » .

وفتح الباب على مصراعيه وتقدم مستر توعمان وذلك الغريب فدخلا بهو الرقص

(يتبع) هاشم

(١) هما فى الانجليزية الحرفان الأولان من تلك العبارة نادى بكوك (Pickuick Club) (٢) حلة خاصة